ندوة

المستوطِن في نسخته النيوليبرالية

مسارات السلب والمقاومة

في سيمنار «المركز العربي» الذي عقد الأربعاء الماضي، طرح الباحث الفلسطيني إيهاب محارمة منظوره حول العمل والعمّال الفلسطينيين في سياق الاستعمار الاستيطاني المندمج مع النيوليبرالية، بوصفه أداة للإقصاء وإنتاج الموت، وضرورة التفكير في منطق مقاومة جديدة من خلال ممارسات يومية

الدوحة ـ **محمد هديب**

لئن قام منطق الاستعمار الاستيطاني على سلب الأرض وإقصاء السكّان الأصليين وإحلال مستوطنين بدلاً عنهم، فإنّ حالة الاستعمار الإسرائيلي تشهد مسارات مختلفة، إذ لم ينجح مشروعها في محو السكان الأصليين (نماذج أميركا وأستراليا ونيوزلندا)، لكنّه أدار بنى جديدة للسلب تنتج الموت البطيء في سياق المزج الحاصل بين الاستعمار الاستيطاني والنيوليبرالية. النيوليبرالية تندمج مع هذا الاستعمار وتقدّم وجهاً جديداً من أوجه العنف الاستعماري. وهذا ما قامت عليه مقاربة إيهاب محارمة الباحث في «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» ضمن السيمنار الأسبوعي، بعنوان «مسارات السلب ومسارات المقاومة في عصر الاستعمار الاستيطاني النيوليبرالي»، والذي عقد الأربعاء الماضي.

ركّزت الورقة على سلب العمل والعمّال الفلسطينيّين العاملين في الاقتصاد الإسرائيلي ومقاومتهم، وتدمير قدرة الإنسان الفلسطيني على أرضه، وكانت الضفة الغربية مجال بحثه واستقصائه الميداني. يطرح الباحث منظوره حول العمل والعمّال في سياق الاستعمار الاستيطاني بوصفه أداة للإقصاء وإنتاج الموت وتحقيق تراكم من خلال ذلك، وكذا التفكير في منطق المقاومة الجديد الرافض للنيوليبرالية والاستعمار الاستيطاني والذي يظهر في ممارسات يومية متعدّدة ومتناقضة يسعى من خلالها الفلسطينيّون إلى مواجهة سلطة المستوطنين، وفرض سيادة متداخلة يتحدّون فيها السيادة الاستعمارية والنيوليبرالية على الأرض.

وتبنّى الباحث فكرة مفادها أنّ «إسرائيل» استعمار استيطاني أنشأ نظام أبارتهايد، كما يقول المفكّر عزمي بشارة، وأنّ هذا النظام منذ التسعينيات أعاد بشكل مُمنهج صياغة العلاقة بين الاستعمار الاستيطاني والنيوليبرالية، كما يعتقد أندي كلارنو، أستاذ علم الاجتماع والدراسات الأميركية والأفريقية. وقد بات هذا النظام، وفق رؤيته، واضحاً في معالمه القانونية والإدارية مع توقيع «اتفاقات أوسلو» عام 1993، وتجلّى هذا الوضوح بشكل أكبر بعد انتهاء الانتفاضة الفلسطينية الثانية عام 2005، مع إنشاء بنية تحتيّة لتشغيل نظام الأبارتهايد. إذاً، لم يكن الغرض من إنشاء هذا النظام الفصل والتمييز بين المستوطنين والفلسطينيّين، بل إنّ الإقصاء هو المنطق الناظم لممارسات تضمن أكبر قدر ممكن من الأرض مع أقل عدد ممكن من الفلسطينيين.

قبل الوصول إلى إنتاج الموت البطيء أو النزيف الوجودي الفلسطيني، ينطلق محارمة من حقيقة أنّ 92% من الفلسطينيّين حُشروا في منطقتي ألف وباء اللتين تشكلان قرابة 36% من مساحة الضفة الغربية. هذا يعني أنّ المدن والمخيّمات تحوّلت إلى معازل مُحاطة بحواجز عسكرية مع منع أشكال الحياة في المناطق جيم، في الوقت الذي رُبطت فيه المستوطنات بطرق مع المدن الإسرائيلية حتى أصبحت أشبه بضواحي هذه المدن. وبالطبع لم يتجاهل البحث جدار الفصل الإسمنتي (بدأ بناؤه في عام 2002) قائلاً إن المعازل وطرد السكان وجه أول من وجوه السلب. أما داخل هذه المعازل فكيف يجري السلب؟ يجيب بأن «إسرائيل»، بعد فرضها الأمر الواقع بحصر الفلسطينيين في معازل، فإنّها تعمل على إقصائهم ومحوهم بشكل مُمنهج، وتدمير قدرتهم الفردية والجماعية على البقاء في الأرض، وحرمانهم من فرصة العيش كمجتمع متماسك، فضلاً عن تجريدهم من القدرات اللازمة لمقاومة هذا الواقع. ومما عالجه الباحث السلب بالمعنى الاقتصادي، فالنهج النيوليبرالي الذي تبنّته السلطة الفلسطينية في الضفّة في ظلّ التناقض مع السلطة في غزّة، قد أنتج نظاماً يرى إدارة المؤسّسات العامة بالمنطق الأمني. ولأنّ الاستعمار الاستيطاني النيوليبرالي يقدّم استراتيجيات مبتكرة مقارنة بتجارب استعمارية لم تُعاصر النيوليبرالية، لاحظ الباحث أن السلطة إلى جانب إدارتها التعليم والصحة وغير ذلك، انخرطت في مراقبة الفلسطينيين وضبط سلوكهم بالتنسيق مع المستعمِر، وكان هذا واضحاً مع تمكّن التكنوقراط والقادة النيوليبراليين في المؤسّسات الدولية المانحة من بيع النيوليبرالية بوصفها وصفة لإنهاء الاستعمار وبناء الدولة. أدّى هذا، وفق ما يخلص، بعد الانتفاضة الثانية (2000 - 2005) إلى تعزيز «إسرائيل» اعتماد الفلسطينيّين على العمل والاستهلاك أكثر في السوق الإسرائيلية، مع ضرورة إبقائهم معتمدين على المنح والمساعدات الخارجية. وإذا أخذنا إشادة المؤسّسات المالية بالسلطة الفلسطينية ومؤسّساتها، فإن الاقتصاد الفلسطيني لم يتمكن من الانفكاك عن الاقتصاد الإسرائيلي. هذا أمر يعاينه محارمة في تفاصيل عديدة، لكن أبلغها هو ما تقوله الأرقام، فالفلسطينيون منذ 1993 تلقّوا أكثر من 45 مليار دولار مساعدات مالية من المانحين، ومن كل دولار واحد يذهب 72 سنتاً إلى الاقتصاد الإسرائيلي.

ورأى الباحث تعمّق النهج النيوليبرالي المعتمد على التنسيق الاقتصادي ليصبح الخيار الأكثر براغماتية للنخب الاقتصادية والسياسية وتحول القضية الفلسطينية بالنسبة إلى هذه النخب إلى مشكلة تقنية. ليس هذا فحسب، بل قرأ الباحث في المشهد وجود بعض الفلسطينيين العاديين الذين أمّنوا عبر هذا التحوّل طريقهم للصعود الاجتماعي، وبرز ذلك مع صعود الاستهلاك المدفوع بالديون والصناعات الخدمية وغير ذلك، مما يعني أنّ هذا النهج لم يعد يفسر سلوك النخبة السياسية، بل انتشر إلى طبقات أخرى، كما يقول. واستعاد محارمة فترة زمنيّة تأسيسية في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، التي تشكّل فيها اندماج رأس المال الإسرائيلي مع الأميركي، ولا سيّما في مجالات الصناعة الأمنية والعسكرية، ما لعب دوراً مهماً في تحول الاقتصاد الإسرائيلي لهيمنة الصهيونية النيوليبرالية. كما أن انتصار الليكود عام 1977 عزّز في تعجيل عملية التحرير الاقتصادي، إذ بنَت النخب الإسرائيلية رؤاها على أنّ النيوليبرالية وسيلة للاستفادة من رأس المال الغربي في ما يتعلق بالمشروع الاستعماري الاستيطاني في فلسطين.

> تندمج النيوليبرالية مع الاستعمار وتقدّم وجهاً جديداً منه
>
> كانت «اتفاقية أوسلو» فصلاً من فصول النيوليبرالية

حرّاس مستوطنة قرب حوّارة في نابلس (Getty)

النص الكامل
على الموقع الألكتروني

أنماط نهب «ناعمة»

في حديثه عن أنماط السلب «الناعم» الذي استخدمته «إسرائيل» لإقصاء الفلسطينيين ومحوهم، يبرز الباحث (الصورة من الندوة)، نمطان يتعلقان بإحكام السيطرة على أجساد الفلسطينيين: الأول يظهر فيه الفلسطيني بوصفه ملفاً أمنياً ترافق في السنوات الأخيرة مع تغيّر في طبيعة الحصول على تصاريح العمل والمرور، والثاني هو عمل الفلسطينيين في مصانع داخل الضفة الغربية، خاضعة للسلطة الفلسطينية، لكنها مجبرة على تنفيذ شروط «إسرائيل».

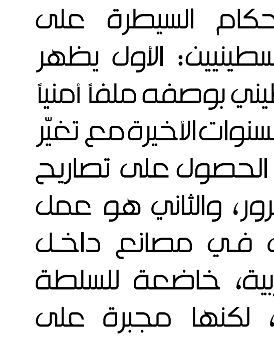

إطلالة

أرقام حين يكونون سوداً أو سُمراً أو صُفراً

إلّا لو خالطها دمٌ أبيض

ثلاثون أو أربعون ألف شهيد في غزّة هم محض أرقام حين يكونون سوداً أو سُمراً أو صُفراً، ولكن يكفينا قتيلٌ أبيض واحد كي نقلب المعادلة

يزن الحاج

فتاة تمسك بطائرة شراعية عليها علم فلسطين، خانيونس، 28 آذار/ مارس 2024 (Getty)

ينقل لنا الكاتب والموسيقي الأميركي جيمس ماكبرايد في سيرته الذاتية «لون الماء» حيرة الطفل الذي كان عليه وهو يتأمّل بشرته السوداء وبشرة أمّه البيضاء. كانا عائدين من الكنيسة حين قلّب السؤال في رأسه عن لون الله، أأبيض هو أم أسود؟ حاولت الأمّ نسف السؤال بمضاعفة الغموض، وقالت له إنّ الله ليس أيّاً منهما، بل هو روحٌ. ولكنّ عناد الطفل لا يهدأ بالغموض، إذ ما شأن الروح بهرمية المكانة والمال المرتبطين باللون. وهل تكون تلك الروح عادلة أم تراها تميل إلى الأبيض أيضاً؟ تُنهي الأم إجابتها باستعارة شعرية فتقول إنّ تلك الروح ليست منحازة، إذ لا لون لها؛ لونها لون الماء.

تتناوب فصول السيرة الذاتية بين حياة الطفل الأسود وحياة أمّه اليهودية البيضاء، وسيشبّ الطفل ليقتنع بالشعر وبإجابة الأمّ، فيبوح بامتنانه لأنّه وُلِد من عالمين مختلفين متناقضين. ولكنّ الواقع عنيد كعناد الطفل اللجوج ذاك الذي كان يتمنّى لو كان الناس كلّهم لوناً واحداً، وإن كان يميل حتماً إلى لونه هو، أن يكون مثل أشقائه وأصدقائه الذين غرسوا فيه كبرياء اللون الأسود، حيث لا امتيازات متوارثة مُسلّم بها، بل هي ما تُعايشه، وتُقاسيه، كي تُكوِّن هويتك وحياتك. وكأن ماكبرايد يُضمر هنا بما لا يودّ التصريح به: تلك الروح بيضاء لا سوداء، بصرف النظر عن الأحلام والأمنيات.

يلفتنا هنا أن الترفّع عن الاختلافات لا يكون من نصيب صاحب الامتيازات، بل من واجب الضحايا المضطهدين وحدهم. فنبذ العنصرية لا بد أن يكون واجب السود لا البيض، ونبذ الحقد واجب الضحايا لا الجلّادين، واعتناق القناعة واجب المحكومين لا الحكّام، والتغنّي بالسلام واجب الضحايا لا الاحتلال. هو الواجب الذي لا يستحق احتفاء، فالاحتفاء لأصحاب الامتيازات الذين سنبجّل تضحياتهم حين يرتضون التخلّي عن جزء من «حقهم». وكذا هو الدم.

ثلاثون أو أربعون ألف شهيد محض أرقام حين يكونون سوداً أو سُمراً أو صُفراً، ولكن يكفينا قتيلٌ أبيض واحد كي نقلب المعادلة برمّتها، بصرف النظر عن ماضي هذا القتيل. وكأن القضايا لا معنى لها إلّا لو خالطها دم أبيض. دُمِّرت غزّة كلّها، وشُرّد أهلها، وقُتل من قُتل، وتيتّم من تيتّم، وغرق سكّانها في جحيم التجويع، ولم يحظوا بمكان إلا في حاشية سريعة، بينما أُفرِد المتن لجندي أميركي تحوّل فوراً إلى شهيد، في حين بخلت اللغة بتلك المفردة على آلاف الفلسطينيّين. هو البطل وهم كومبارس، هو المناضل وهم بيادق، هو أخونا في الإنسانية وهم متاع نافل في القافلة، هو صاحب الاسم وهم أرقام. تناسى فقهاؤنا حرمة الانتحار التي رجموا بها البوعزيزي، وتناسى أهلُنا بزّة الجندي الذي لا يختلف أقرانه عن الإسرائيليين في شيء، فالدم الأبيض، كالثورة، يجبُّ ما قبله. ومن نحن كي نحكم على البطل سليل الأبطال الذي منح الفلسطينيين شرف أن تختلط دماؤهم السمراء بدم نقي أبيض. تسابق المثقّفون على رثاء الشهيد، وعلى تدبيج المعلّقات، وعلى كتابة أحلام اليوم التالي الذي سيعقب الحرب كي تنعم أعيننا برؤية تمثال الجندي الأميركي لينير أطلال غزّة. هي غزّة ذاتها التي تسابقوا هم أنفسهم في تصنيف أهلها، وفي تحديد من يستحقّ الرثاء منهم؛ هي غزّة ذاتها التي حُرم أبناؤها من تأشيرات السفر، ومن حرّية الدخول إلى البلاد التي تنفر من الفلسطينيّين، فهم مثيرو شغب وقلاقل. هُم مثقّفونا أنفسهم الذين غفلوا عن طرح التساؤل المرعب: ماذا لو كان الجندي إسرائيلياً؟

(كاتب ومترجم من سورية)

> «الترفّع عن الاختلافات» من واجب الضحايا المضطهدين وحدهم

مع غزّة

إبراهيم فوزي

الإبداع الآن صرخة في وجه الظلم

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء

الفيّوم (مصر) ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوان إبادةٍ على غزّة؟

منذ بدء حرب الإبادة التي شنتها «إسرائيل»، وحتى الآن، شاهدنا القتل والتدمير والتشريد والتجويع. قصف كل شيء: المنازل والمدارس والجامعات. ما يجري في غزّة أوقفني للتفكير، ومنحني سبباً للعمل. فإن كانت قلوبنا تنزف دماً، فإن ألسنتنا لن تتوقف، وأقلامنا لن تجف. أقضي معظم وقتي أتابع الأخبار. يشارك أصدقائي على مواقع التواصل الاجتماعي صوراً وفيديوهات قادمة من غزّة، تدمي القلب، جثث الشهداء ملقاة في الطرقات، أطفال ينزفون، وأمهات يصرخن لفقد عائلاتهن بالكامل. الشوارع تحولت لمقابر كبيرة. لذا، هاجسي الوحيد هو إخوتي في غزّة، وكيف ومتى سينتهي هذا الكابوس، وماذا يمكنني أن أفعل لأدعمهم وأكون صوتهم.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

لم تعد حياتي كما كانت قبل السابع من أكتوبر. عدت قبل ذلك التاريخ بقليل من رحلة قصيرة إلى المملكة المتحدة، عدت محملاً بالعديد من المشاريع الأدبية التي لم يكن رأسي يتسع لها، والأخبار التي أسعدتني حينها، لكنني الآن تسيطر عليّ مشاعر الحزن، فقدت شغفي بما أفعل إن لم يكن لأجل فلسطين. أشعر أن انشغالي عن القضية الفلسطينية خيانة، أن سعادتي بأي إنجاز صغير خيانة. أترجم الآن مقالات حول الصهيونية، وكيف بدأت، وأترجم شهادات لكتّاب فلسطينيين، أشارك في أحداث وفعاليات تدعم الفلسطينيين، وأوقع عرائض لوقف الحرب في غزّة. مؤخراً، كنت أترجم شهادة لكاتب في غزّة وكنا نتحدث عبر الواتساب، لكن فجأة لم يعد يرد على رسائلي، ولا يفتح الواتساب، ولا أخبار عنه مطلقاً. هذا الموقف أصابني بألم نفسي شديد. يومياً، أفتح الرسائل بيننا منتظراً أن يرسل إليَّ يخبرني أنه ما زال بخير.

■ إلى أي درجة تشعر بأن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

العمل الإبداعي وسيلة للتحرر، ومقاومة للعدوان. مسؤولية المبدع في مثل هذه الأوقات هي أن يكون صرخة في وجه الظلم؛ فالعمل الإبداعي له القدرة على الوصول إلى أعماق النفس البشرية. بصفتي مترجماً، أرى أن ترجمة ما يكتبه الفلسطينيون أمر بالغ الأهمية الآن. الوضع المأساوي في غزّة يتطلب تدخلاً سياسياً، لكن قوة العمل الإبداعي تكمن في كشف زيف الخطاب الذي يروج له العدو الصهيوني، وخلق سردية مناهضة له، وتشجيع حالة من التضامن العالمي مع القضية الفلسطينية.

■ لو قيّض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

سأظل ملتزماً بالعمل الإبداعي؛ لأنني مؤمن بقوة الأدب والفن في إحداث تغيير ثقافي وروحي عميق. العمل الإبداعي مقاومة في حد ذاته، ولا ينفصل عن العمل السياسي أو الإنساني.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

أتمنى أن يصبح العالم مكاناً آمناً، يعمّ فيه السلام. أتمنى أن تنتهي كوابيس الحرب، وأن يقف العالم بأسره مع الحق في وجه الظلم والطغيان.

■ شخصية إبداعية مقاوِمة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

أتمنى أن ألتقي غسان كنفاني، وسأقول له: شكراً لروحك وقلمك وإبداعك. شكراً لأنك رمز للمقاومة الثقافية والإبداعية بالنسبة إلي.

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

صمودكم وشجاعتكم منحتنا الأمل في النصر، وأنا موقن أن الله لن يضيعكم، وستنتهي هذه الحرب بنصر مؤزر. لكنها حرب طويلة تحتاج صبراً وتضحيات، وأنتم أهل لها. العالم كله شاهد على معاناتكم وصمودكم، وعلى وحشية الصهاينة. تعبيركم عن سعادتكم وانتصاراتكم المعنوية يقهر عدوكم، مواقفكم تجعلنا نعيد النظر في ذواتنا وحياتنا وجدواها وما نقدمه لهذا العالم. لقد جعلتم صورة الغربي المناصر للحريات تتحطم أمام أعين الجميع. لا تحزنوا؛ فالله معكم.

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

أيها العرب، اتحدوا؛ فاتحادنا قوة وتضامننا مع أهلنا في غزّة شرف. فالقضية الفلسطينية قضيتنا جميعا والحرب ضدنا. لنقاوم حتى لو فقط بنشر القضية ومشاركة فظائع الصهاينة التي يرتكبونها يومياً. استمروا في مقاطعة كل من يدعم عدونا الصهيوني، ويجاهر بدعمه له، وتأكدوا أن هذه المقاطعة ذات أثر سلبي كبير عليهم. اكتبوا وافضحوا عدوكم، ولا تتوقفوا أبداً، ادعوا لإخوانكم، ولا تنسوهم أبداً، فهم ليسوا مجرّد أرقام.

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان، ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي».. ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

عزيزتي دارين: نحن نراك، نسمعك، نحبك، ونشعر بك. تقف كلماتي عاجزة عن وصف ما مررت به، لقد سرقوا طفولتك البريئة، لكن عيونك الشجاعة ووجهك البريء، وروحك النقية تمنحنا أملاً وقوة. احلمي يا عزيزتي بالنصر؛ فهو آت. ساعدي الفقراء كما «وصّاكِ بابا»، وارسمي علماً بالألوان الحمراء والبيضاء والخضراء.

> ترجمة كتابات فلسطين ضرورية لتكذيب السردية الصهيونية

إبراهيم فوزي

بطاقة

إبراهيم فوزي، أكاديمي ومترجم أدبي مصري من مواليد عام 1993. يعمل مدرسًا مساعدًا للأدب الإنكليزي، ومحرّراً أدبياً بمجلة روايات وMinorLits و Asymptote، وَمُقْدَم بودكاست مع New Books Network. ترجم إلى الإنكليزية قصص أطفال فلسطينية، ويصدر كتابه Belonging to Prison هذا الصيف عن Cambridge SP, UK. فازت ترجمته إلى الإنكليزية لرواية الكاتب الكويتي خالد النصرالله «الخط الأبيض من الليل» بجائزة English PEN, UK العام الماضي.

فعاليات

بالتعاون مع رابطة تونس للثقافة والتعدُّد، يُنظّم فرع المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في تونس، ندوةً بعنوان **التديُّن وقضاياه في تونس** عند الثانية من بعد ظُهر اليوم السبت، يقدّمها الباحث **محمد بالطيّب**، ويحاوره فيها **عبد السلام الحمدي**، و تُبثّ عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

كيف تُشارك جامعات الكيان الصهيوني في اضطهاد الشعب الفلسطيني وسلبه حرّيته؟ يشغل هذا السؤال موضوع كتاب صدر حديثاً للباحثة **مايا ويند** (الصورة)، بعنوان **أبراج العاج والفولاذ**. تُنظّم منشورات هيماركت بوكس جلسة نقاشية حول الكتاب تجمع المؤلّفة بالباحثتَين: **نعومي كلاين** و**ناديا أبو الحاج**، عند السابعة من مساء الثلاثاء المقبل و تُبثّ عبر منصّة يو تيوب.

فصول من يوميّات الأزمنة الراهنة عنوان معرض التشكيلي والنحّات **نديم كرم** (الصورة)، الذي يتواصل في «مصانع أبرويان» ببيروت حتى الثاني من أيار/ مايو المُقبل. يستعيد المعرض أعمال الفنّان اللبناني على مدى 30 عاماً، مُجسّداً ملاحظاته عن الحياة وأبرز التحوّلات السياسية التي مرّت بها البلاد.

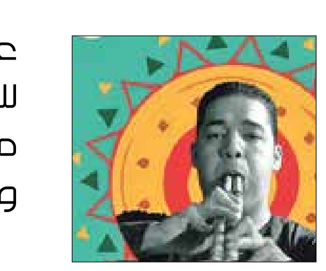

عند التاسعة من مساء الثلاثاء المقبل يُقدّم مشروع **صوت الأصيل** حفلاً للموسيقى الشعبية والمدائح في ساحة روابط للفنون بالقاهرة، يتكوّن المشروع من: **عماد شاهين** و**رشيدة السيد** و**سوزان مختار** (غناء)، و**أمين شاهين** (أرغول)، و**محمد شاكر** (ربابة)، و**أميرة شعبان** (ربابة و تشيللو)، و**خالد حنفي** (إيقاع).